مدينة بيروت

الفصل الاول

من مصر الى بيروت فالشام فتدمر

١١ اذار — ٤ نيسان سنة ١٩١٤

تجهيز الحملة — الاوراق الحكومية في الشام — ثلاثة ايام مع قبيلة الحسنا وهدية الشيخ محمد الملحم — الهجوم علينا ليلا في الحماد — اثار تدمر او مدينة الورد — نبذة تاريخية عن تدمر وعن الملكة زينوبيا

١١ اذار سنة ١٩١٤

ركبنا القطار الحديدي في القاهرة وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة صباحاً وما زال يذهب الارض ذهباً سائراً بين تلك الروح الفسيحة الغناء الى ان وقف بنا الساعة

الخامسة مساء في ثغر بور سعيد وهناك عند الساعة الثامنة ركبنا الباخرة التي اقلتنا الى بيروت تحت سماء زرقاء صافية الاديم

١٢ اذار

وكانت الساعة الثالثة مساء فرست الباخرة في مياه بيروت ، نزلنا الى اليابسة وذهبنا تواً الى فرن الشباك حيث نُصبت الخيام لمبيتنا تلك الليلة . وكنت سبقت وكتبت الى شقيقي (حنا) ان يوافيني الى هنالك ليعينني باعداد العدة اللازمة لرحلتنا فوجدته ينتظرني وقد تأهب ليقوم مقامي في تلك المهمة اعتقاداً منه ان سفرتنا هذه لن تتجاوز دمشق فبلاد فلسطين . فابيت عليه السفر مكاني ولم ابح له بما كان من امري مع السيد الرومي خشية ان نقوم عليَّ قيامته وقيامة والدي لدى تصورهم الاهوال والاخطار التي كنا مزمعين ان نتعرض لها في تلك المفاوز والصحارى

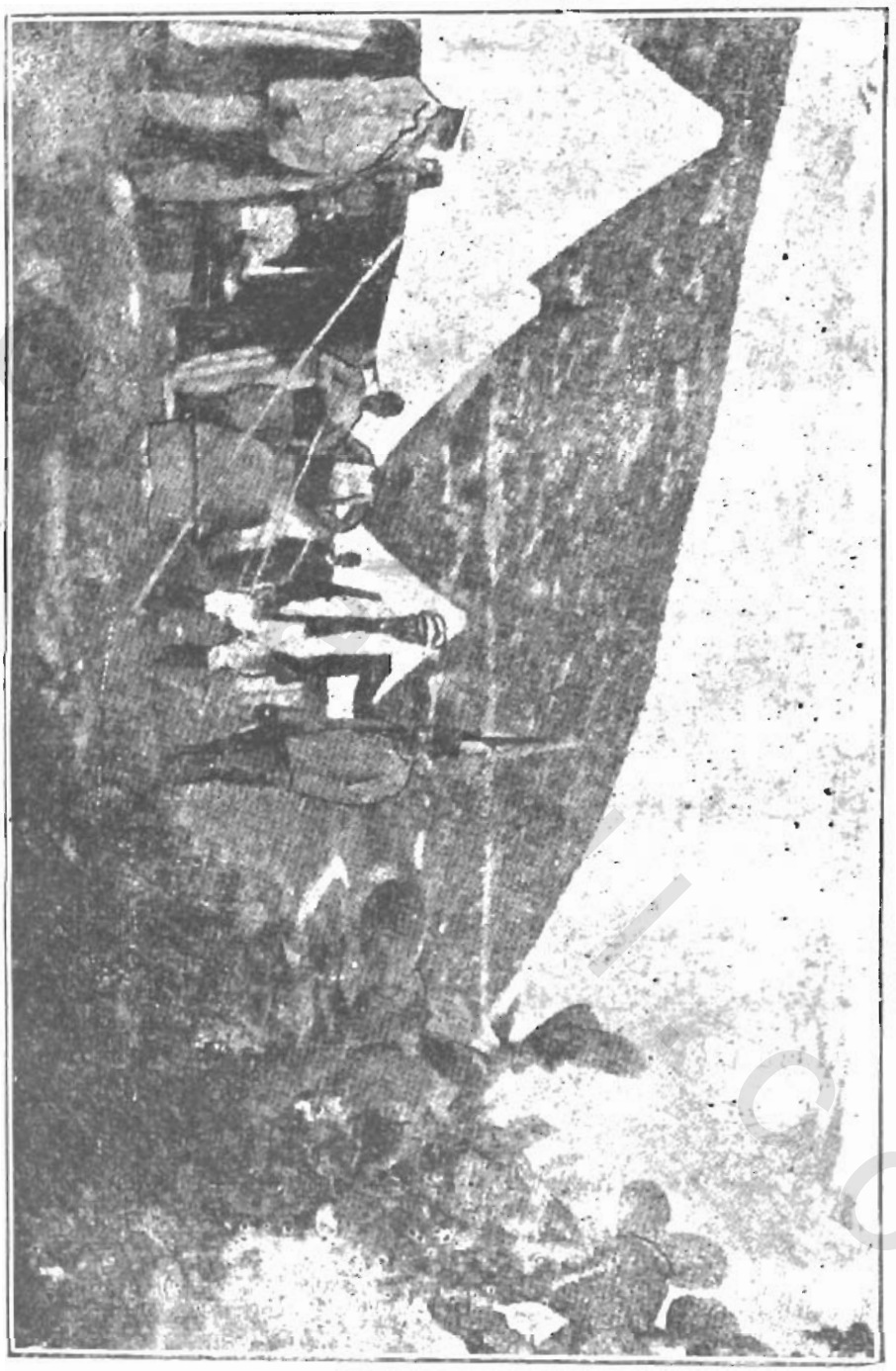

الوصول الى فرن الشباك

بيروت

لمحة تاريخية

كانت بيروت او (بيربتوس) لايام تقادم عهدها مركز الملك عاموتيدا المصري نائب الفراعنة وكانت قائمة على اراضي الابليين في شمالي فينيقيا

وقد دمرتها حرب تربفون وانطيوخوس السابع سنة ٦٤٠ قبل المسيح فعاد الرومان وشيدوها مطلقين عليها اسم « كولونيا جوليا اوغستا فليكس بريتوس » وهي ابنة الامبراطور اوغسطوس

ثم جاء هيرودس الكبير فالثاني فالثالث وبنوا فيها الحمامات والمسارح وجروا اليها الماء من نبع (المورغاس) المعروف اليوم بنبع الداشونية

واشتهرت بيروت في تلك الازمنة بمنسوجاتها الحريرية . وقد تهدمت بالزلزال سنة ٣٤٨ مسيحية ، وفتحها المسلمون سنة ٦٣٥ ثم استولى عليها الصليبيون فبقيت تحت سيطرتهم من سنة ١١٢٥ الى سنة ١٢٩١

وملك عليها الامير فخر الدين المعني من سنة ١٥٩٠ الى سنة ١٦٤٤ وعقد في ايامه معاهدة مع المصريين فازدهرت حينئذ التجارة وكان الامير هذا قد صرف ست سنوات في ايطاليا فراقته بناياتها فشيد في بيروت جملة بنايات على شاكلتها

وكان للامير المعني اعداء الداء فما زالوا يعملون حتى الفوا لمحاربته حزباً شديد البأس فدحر الاخصام ابنه علياً الذي قتله الاتراك في صفد وقُتل بعده الامير والده في الاستانة .

وفي سنة ١٨٣١ استولى المصريون على بيروت تحت قيادة ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا امير مصر فرمموا مرفأها فتفوق على كل من مرفأي صور وصيدا

وفي سنة ١٨٤٠ ساعد الانكليز جماعة الترك على اخراج المصريين من بيروت وضواحيها فاستعادها الترك وظلوا اسياد البلاد الى نهاية الحرب الكبرى

حرش الصنوبر في بيروت

بيروت قائمة في وسط سهل ضيق منحدر نحو البحر على شكل لسان يجعلها شبه جزيرة تكتنفها البساتين الخصبة من جهتيها الجنوبية والشرقية وتتصل بجسر نهرها الذي يصب في خليج مار جرجس (الخضر) وتمتد على ستة كيلومترات من نهر بيروت وهو حدها الشرقي الى رأس بيروت الذي هو حدها الغربي حيث ينتهي بالبحر

رغماً عن ان بيروت كانت مرسحاً للغزاة والفاتحين وموطناً لشعوب كثيرة مختلفة لم يظهر فيها من الاثار ، الا بعض نواويس واعمدة من حجر السماقي المالس وقد ظهر فيها حديثاً شيء من الاثار حينما هدم الاتراك بعض اسواقها القديمة ايام الحرب الكبرى وهذا دليل قاطع على بقاء اثار تستحق الذكر مدفونة في جوفها

تقسم بيروت اليوم الى اثني عشر منطقة (اي حياً) وهي ١ دار المرايسي ٢ ميناء الحصن ٣ رأس بيروت ٤ المصيطبه ٥ المزرعه ٦ الباشوره ٧ زقاق البلاط ٨ المرفأ ٩ الصيفي ١٠ المدور ١١ الرميله ١٢ الاشرفيه

سكانها الوطنيون والاجانب بحسب الاحصاء الاخير يبلغون ١١٣٤٠٤ نسمات ما خلا الذين قيدوا نفوسهم في مناطق الجبل

١٣ و ١٤ اذار

كنا نعنى باعداد ما يلزم لرحلتنا فاضطررنا الى قضاء يومين كاملين في فرن الشباك جهزنا خلالها الحملة اللازمة

١٥ اذار

غادرنا فرن الشباك باكراً وكان الطقس عاطلا فسرنا تحت وابل من الامطار الى ان بلغنا بحمدون فاستأجرنا هنالك منزلاً خارجاً خالياً لا اثاث فيه ولا رياش فافترشنا بعض ما كنا ننقله من الامتعة وبتنا ليلتنا نرتاح بعد عذاب ذلك النهار

١٦ اذار

اصبحنا فاذا بنا تحت جو لا يزال عاطلا فركبنا القطار الحديدي في محطة بحمدون نسير منها الى دمشق موعزين الى رجال الحملة ان يتابعوا المسير فنجتمع معاً في تلك المدينة وقد اوصلنا اليها القطار عند المساء فبتنا ليلتنا تلك في نزل خوام

دمشق باب الحجاز وحصن البادية وعاصمة سوريا قديماً وحديثاً قائمة غربي صحراء سوريا التي تكتنفها من جهاتها الثلاث ما عدا الجهة الشرقية حيث تقوم سلسلة من جبال شامخة الذرى يحدها شمالا سلسلة جبال انتيلبنان الممتدة شرقاً نحو الصحراء وغرباً يميل الى الشمال جبل قاقر وجبل قصيون وجنوباً براكين جبل يعرف بالجبل الاسود- وعين الغوطة التي تعرف بغوطة دمشق ، جبل المني ، والغوطة كناية عن بساتين نضرة في ظاهر المدينة ، على مسافة ثلاث ساعات ومن جبل انتيلبنان تتفجر الينابيع والانهار اليها واشهرها نهر بردى الذي يتفرع بعد خروجه من منبعه الى سبعة انهر

اما منتزهات دمشق فهي اشهر من ان نعرف عنها وعما هي عليه هذه المدينة من جمال المناظر ومدهشات الطبيعة

عدد سكانها ١٧٠ الفاً- اسلام ونصارى ويهود والاكثرية الساحقة فيها من الاسلام

دمشق الشام

لمحة تاريخية

هي جنة سوريه واحدى مدائنها التاريخية · عاصرت الاراميين والفينيقيين واليونانيين وبني اسرائيل والروم والعرب · طوقتها فيما عبر جيوش الفاتحين واطلق الغزاة خيولهم

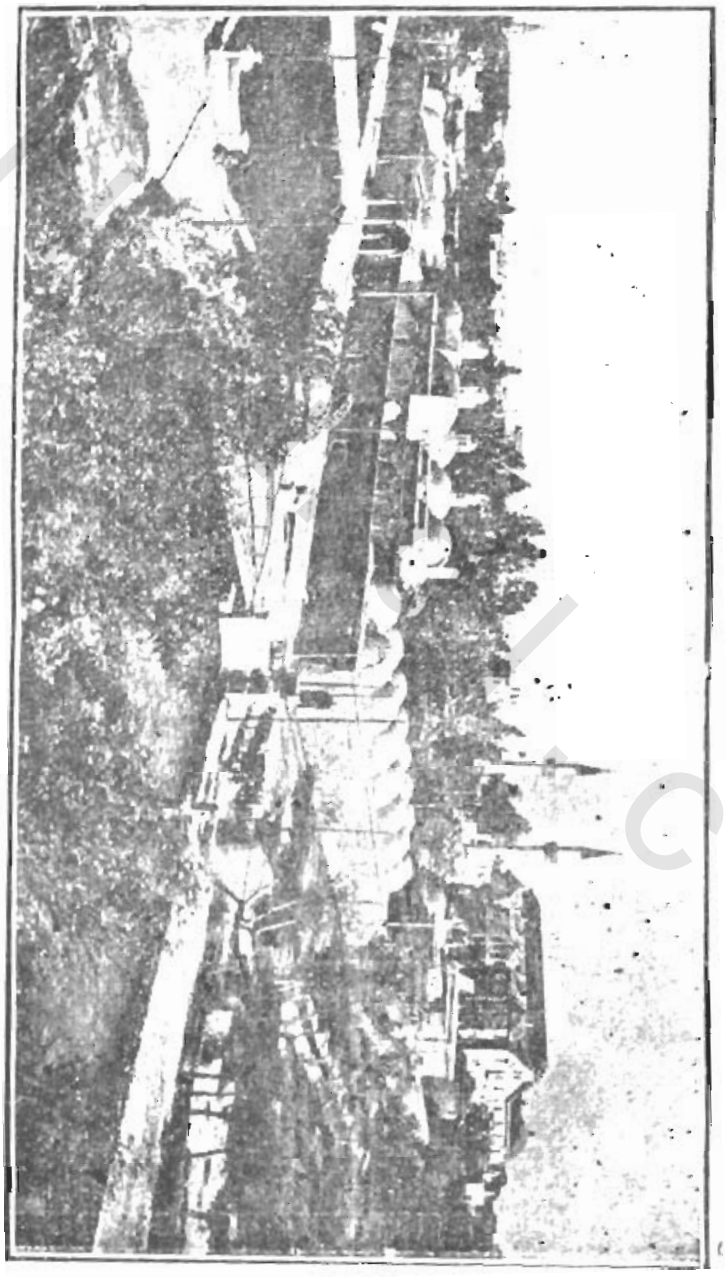

جامع السلطان سليم في دمشق

عليها يريدون ضمها الى املاكهم . استعمرتها ذرية آرام واكتسحها الاسرائيليون وحاربها ملوك اشور وخفقت فوق ابراجها اعلام الروم ورضخت لحكم الخلفاء ، واعتلى عرشها صلاح الدين ثم اغتصبها التتر واستولى عليها بنو عثمان

وانتهت الحرب الكونية فتخلصت من نير الاتراك واستقلت تحت اشراف الدولة الافرنسية

١٧ اذار

غادرنا النزل باكراً نتفرج على دمشق وما فيها من الآثار البديعة والبنايات الفخمة فزرنا جوامعها وكنائسها ومقابرها واسواقها الشرقية وعدنا الى النزل في ساعة متأخرة من الليل .

١٨ اذار

واصلنا التجوال في المدينة نتفقد بقية ما فيها منتظرين وصول الحملة ومانصفنا ذلك النهار حتى كانت بين ايدينا

فنصبنا الخيام في جنينة على المرجة قريبة من نزل خوام

١٩ اذار

عدنا نكمل ما كان ينقصنا من المعدات مهتمين بالحصول على الاجازات الرسمية والتوصيات المتنوعة في شتى المراكز وكنا نحسب هذه التوصيات ضرورية جداً لتسهيل رحلتنا . فاستغرق عملنا هذا ثلاثة ايام بكاملها

٢٢ اذار

غادرنا دمشق حوالي الساعة الثامنة صباحاً راكبين خيلنا وكنا في «حرستا» حوالي الساعة التاسعة ومن هناك تابعنا المسير الى « دوما » فوصلنا اليها بعد مرور نصف ساعة ثم سرنا الى « خان القصير » فالى « خان عياش » وكان ذلك عند الساعة الحادية عشرة صباحاً .

فمكثنا هنالك نحواً من ساعتين ونصف الساعة نتناول طعام الظهر ونرتاح من اتعاب السفر .

« وخان عياش » هذا كان في تلك الازمنة نقطة عسكرية يحرسها ثمانية من رجال

قبر ستنا فاطمة في دمشق

الدرك تحت قيادة جاويش وكانت الحكومة البائدة تغير اولئك الحراس مرة في كل شهرين.

وقمنا نتابع السفر ووجهتنا «القطيفة» فبلغناها عند الساعة الرابعة وكانت حاشيتنا لا تزال على الطريق تحت حماية نفر من رجال الدرك فانضمت الينا عند الساعة السادسة ونصبنا الخيام في باحة داخل «خان اسنان باشا» وهناك بتنا ليلتنا

«والقطيفة» قرية صغيرة يتدفق في وسطها نبع ماء صغير يقع على مسافة قصيرة من الخان المذكور آنفاً. وفي هذه القرية لبن معروف بجودته وارضها غنية بالكلاء وبعلف البهائم والمواشي

٢٣ اذار

عند الساعة الثامنة صباحاً نهضنا مودعين «القطيفة» وما مر على ذلك نحو ساعة ونصف الساعة حتى كنا في «خان العروس»

ثم مررنا تارکين الحملة في ذلك الموضع فكنا في «النبك» عند الساعة الرابعة مساء وانضمت الينا حاشية عند الساعة الخامسة

و«النبك تنتهي طريق العربات فتصبح المسالك بعدها وعرة قفرة

٢٤ اذار

غادرنا النبك عند الساعة الثامنة صباحاً قاصدين الى (ديرعطيه) فكنا هناك عند الساعة الحادية عشرة. واذ كنا نجوب القرية ابتياعاً لبعض الحاجات التقينا كاهناً من الروم الارثوذكس فقال لي رفيقي السائح هذا كاهن روسي، وناداه محيياً مسلما ودعانا الكاهن الى زيارة كنيسته وكانت على مسافة قريبة من مكان اجتماعنا وما كدنا نصل اليها حتى التقينا استاذ المدرسة الخاصة بالجمعية المسكوبية المشيدة في تلك البلدة

فاقترب منا وألح علينا بزيارته في داره فكان له ما طلب . وجتمعنا في الدار على شقيقتي الاستاذ وكانتا تثقفان الفتيات في معهد خاص بالجمعية المشار اليها وقد تفقدنا جميعاً ذلك المعهد فوجدناه منتظماً على ما يناسب ذوق العصر

وكنا عولنا على متابعة السفر على ان اولئك القوم ابوا علينا الا قضاء ليلة عندهم فتناولنا العشاء عند الاستاذ ورقدنا في داره وكان الاستاذ هذا نبيهاً لبيباً ارشدنا الى اشياء كثيرة من احوال تلك النواحي وكنا نجهل اكثرها

اوتيل مسابكي شتورا

لصاحبه الياس مسابكي

المعروف بلوكندة شهر العسل وهذا يكفيه تعريفاً فالعروسين يختارا المحل المطابق لشهر عسلهما لحد الان لا يوجد فندق يزاحمه بذلك

اذا نزلت في اوتيل مسابكي فتشعر انك في بيتك وبين اهلك «من حرب عرف»

٢٥ اذار

خرجنا من دير عطيه عند الساعة الثانية صباحاً كما وقفنا عادتنا وكانت وجهتنا (حميره) فبلغناها عند الساعة الحادية عشرة وقررنا على البقاء فيها الى العصر وهو الوقت الوحيد لاستقاء المواشي والدواب

ثم تابعنا المسير فكنا في (مهين) نحو الساعة الخامسة مساء . وهناك نصبنا الخيام في خان فسيح هو كناية عن بناية كبيرة عظيمة المدخل قامت في وسطها فسحة طويلة

عريضة تحيط بها الغرف من كل الجهات

وفي (مهين) هذه اثار قلعة رومانية بعيدة العهد ونبع ماء غزير وسكانها باجمعهم مسلمون وحواليها من الجهات الاربع القبائل العربية المختلفة الاصل المتنوعة المذاهب والعادات والاخلاق

٢٦ اذار

طلع النهار فودعنا (مهين) نقصد الى (القريتين) فبلغناها عند الظهر ونصبنا خيامنا في حوش (موسى سليمان يونعوم) وهو رجل من ابناء السريان الكاثوليك وله ثروته في تلك الربوع

تناولنا طعام الغذاء واسترحنا من عناء السفر وقمنا نستقصي احوال تلك البلاد وعادات اهلها واخلاقهم . ورقدنا ليلتنا في ذلك الحوش

ليبانون بالاس اوتيل

عاليه

تقوم في اول البلد كاشفة على نظارة بديعة لجهة البحر فيها الحمامات الخصوصية والمياه الجارية — مطبخها متقن — الخدمة فيها بغاية الدقة — من حولها مقهى جميل فيه جميع اسباب السلوى اسعارها لا تزاحم، التجربة اكبر برهان

٢٧ اذار

جاءنا من انبأنا بوجود نزل (منزول) في القريتين يؤمه الغرباء باجمعهم وقد جعله صاحبه — وهو من اغنياء مسلمي تلك البلدة — مأوى لجميع الناس على اختلاف نحلهم وطوائفهم . فقال لي رفيقي السائح : هيا بنا اليه . ذهبنا فاذا بالنزل بناية كبيرة الغرف والدور وفي جملتها قاعة كبيرة معدة للاستراحة والى جانبها باحة فسيحة هي باحة الاكل وجميع الغرف خصت بالنوم وفيها الفرش العديدة يبسطونها على الحصير

وما ان ولجنا القاعة الكبيرة حتى ابصرنا عربياً جميل الطلعة في عقده الرابع يحيط به العربان هيابين ساكتين فسألنا عن اصله وحسبه وكنيته فقيل لنا انه امير عربي يدعى الشيخ « محمد الملحم » وكان شيخ قبيلة « الحسنى »

ثم عرفنا انه كان عائداً من احدى غزواته فتقدمنا اليه مسلمين فدعانا الى الجلوس على مقربة منه ثم ابتدر حديثه قائلاً :

قضيت على ظهر جوادي نحواً من ثماني واربعين ساعة ولكني عدت مسروراً غانماً رابحاً . وكان بعض رعاة مواشينا في البرية فسطا عليهم خمسة وعشرون فارساً من العربان جيراننا وسلبوا منهم خمسين بعيراً . انتهى الي الخبر وكنت في القبيلة وحدي وكان فرساننا باجمعهم بعيدين عني فامتطيت جوادي مستصحباً هذا العبد الذي ترونه واقفاً على عتبة هذه القاعة . وما زلنا نتعقب اولئك الفرسان الى ان ادركناهم وكان قد مر على ذلك ما يناهز من الساعات اربعاً وعشرين فاسترجعنا (الحلال) حيث فر اولئك الانذال تاركين المسروق بين ايدينا . وها اناذا الان ارتاح مسروراً بعد ان صرفت ثماني واربعين ساعة على ظهر جوادي

قلت : وهل جرت العادة في هذه البلاد ان تسطو قبيلة عربية على قبيلة اخرى دون ما سابق عداوة او خصام بينهما ؟

قال : كلا . انما تتعدى قبيلة على اخرى متى كانتا « دشمان » اعداء او بينهما ثأر وكثيراً ما يتفق ان عصابة من اللصوص تسطو على احدى القبائل على غرة كما وقع لنا مؤخراً . وليس بيني وبين امير هؤلاء القوم الذين اعتدوا علينا الا العلائق الطيبة الودية على ان اولئك الفرسان انسلوا خفية من رجال قبيلتهم وقصدوا ان يسرقونا بدون ان يوعز اليهم بذلك اميرهم او شيخهم او احد من زعمائهم . والدليل على ذلك عدم مقاومتهم اذ انهم تركوا المسلوب حالما وقعت ابصارهم عليّ . ولو انهم فعلوا ما فعلوا بمشورة اميرهم لجاءهم من قبله من يعضدهم ويقاومونا حتى النهاية

قلت : وما اسم هذه القبيلة ؟ قال : السبعا . قلت : وهل لكم اعداء ياسيدي الامير قال : لا نخلو من بعضهم على اننا مرتبطون بالصداقة والاخاء مع اكثر قبائل هذه البقعة انما يجب على البدوي ان يكون في البرية على تمام التأهب لرد كل هجمة يولدها له المستقبل . ولست اخفي عنك انه كثيراً ما تغتنم قبيلة قوية من ضعف قبيلة مجاورة فرصة

للانقضاض عليها وسلبها ونهبها

وهذا ما يدعونا الى السهر المتواصل على كياننا القومي و لى انتقاء امير او شيخ (خوش راجل) باسل شجاع

ورأينا الامير منزعجًا من تعب السفر فودعناه

وقد سألنا ساعة الوداع عن مكان نزولنا فقلنا : اننا ناصبون خيامنا في حوش موسى سليمان ابو نعوم . فقال : انني اعرفه وان شاء الله ازوركم هنالك

خرجنا من النزل نستفقد البلدة حيث زرنا مقابر النصارى القديمة ثم عدنا الى سرادقنا ونحن معجبون بشدة بأس ذلك الامير

في محل :

بشاره اسعد فته

سوق الطويلة — بيروت

تجدون جميع اصناف الاجواخ والاقمشة المتنوعة لزوم السيدات والسادة . وقد اشتهر بالتفصيل والخياطة المتقنة من يوم تأسيسه في سنة ١٩٠٨ ومن جرب عرف

العنوان التلغرافي : بشاره فته — بيروت

٢٨ اذار

كنا مصممين على قضاء يومنا هذا في القريتين فذهبنا عند الساعة العاشرة صباحًا الى محلة فيها تعرف برأس العين فشاهدنا هنالك آثار قلعة رومانية قديمة العهد وعدنا الى خيامنا لتناول طعام الظهر

وعند الساعة الرابعة مساء بينما كنا جالسين على جوالق من القش اذ اقبل علينا عبد شاكي السلاح فحيانا وقال : مولاي في الباب قلنا : فليشرفنا بدخوله

الشيخ محمد الملحم شيخ قبيلة الحسنى

دخل الشيخ محمد الملحم يحيط به عشرة من اركان قبيلته كانوا قد جاؤوا لملاقاته عائداً من سفره الذي اشرنا اليه سابقاً فرحبت به قائلاً : اهلاً وسهلاً ومرحباً، على عادة العرب . قال : مرحباً بكم انتم من كرام الضيوف . قدمنا لهم المقاعد فأبوا الا الجلوس نظيرنا على جوالق القش، سألناهم كيف يشربون القهوة فاجابونا مجردة من السكر . وقدمت لهم من لفائف التبغ اللبناني من صنع معملنا في بيت شباب، فوجدها الشيخ لذيذة وصرح لي اذ ذاك انه يود كثيراً لو يزور لبنان ويجوبه ويمر ببلدتنا فيزورنا . ثم طلب الينا ان نزور مضارب قبيلته القائمة على مسافة اربع ساعات من خيامنا فترجمت لرفيقي مقال الشيخ فقبل الدعوة شاكراً . قال الامير :

ساكون عندكم غداً صباحاً ونسير جميعاً الى مضاربنا، ثم ودعنا وانصرف

٢٩ اذار

ما دقت الساعة السابعة صباحاً حتى كان عبد الشيخ محمد الملحم يبشرنا بقدوم مولاه وبمعيته عشرة من اخصائه . فادخلناهم مرحبين بهم ثم اعددنا عدة السفر . وما كان غير القليل حتى غادرنا القريتين وركبنا الخيل بصحبتنا الشيخ الكريم واعوانه ويتبعنا رجالنا والقافلة بحراسة دركي واحد وثلاثة من اخصاء الشيخ محمد وسرنا متكلين عليه تعالى وجهتنا مضارب القبيلة

وما كدنا نبتعد عن القريتين حتى شرع العربان يقومون على ظهر جيادهم بالعاب الفروسية المتنوعة . وكان الشيخ راكباً الى جانبنا يقص على مسامعنا نتفاً من حوادثه الغابرة . واشياء مهمة عن اخلاق وعادات تلك النواحي

وكنت لاحظت بان بالشيخ عرجاً فسألته عن سبب ذلك فاجابني قائلا : قتل والدي وكنت صغيراً قاصراً فانتقلت مشيخة قبيلتنا الى عمي ثم اتفق ان قتل عمي فاراد اولاده ان يستأثروا بالمشيخة وكنت اولى بها منهم فتنازعنا وتحاربنا ولكنني تغلبت عليهم في آخر الامر .

وفي خلال المعارك التي دارت بيننا اصبت بضربة سيف في رجلي كانت سبباً لعرجي ولما كانت الوسائل الطبية والصحية بعيدة المنال في هذه الفيافي لم يتسن لي ان اتعالج فبقيت على ما ترى

قلت وما فعلت بابناء عمك بعد انتصارك عليهم ؟ قال . تركتهم وشأنهم حافظاً كرامتهم ساهراً على راحتهم كل السهر وهم الان يعيشون معي لا حقد بيننا ولا ضغينة يعترفون لي بالمشيخة خاضعين لاحكامي مؤتمرين باوامري نظير كل فرد من افراد القبيلة ولا تعجب اذا قلت انهم من اشد اعواني غيرة علي وحباً لي

قلت : الا تخشى غدرهم ؟

قال : حاشا وكلا . لسنا من جماعة الاتراك . انما نحن عرب لا يغدر احدنا بالاخر

وقد شاء اعرابي منا ان يحارب اعرابياً مثله حاربه علانية واخطره قبل ذلك مراراً طالباً منه مطالب اذا رفضها وقعت بينهما الوقيعة . بناء عليه لا خوف علي اصلا من هذا القبيل والى الان لم يحدث في قبيلتنا ما يشتم منه رائحة الخيانة وما الخيانة الا دأب الجبناء وليس جبان بين ابناء عمي فانهم باجمعهم بواسل شجعان ذوو نفوس عالية واخلاق ابية وما زال الشيخ يحدثنا الاحاديث اللذيذة الى ان انتهينا الى مضارب القبيلة وقد استقبلتنا كوكبة من الفرسان باعازيج الطرب واناشيد الفرح قائلين « تشريفشم غالي شتير » اعني تشريفكم غالي كثير وكان جميعهم يرددون بالصوت الواحد يا مرحباً بالضيوف يا مرحباً يا مرحباً

وما هي الا هنيهة حتى شرعوا بالعاب رياضية تذهل الالباب واهم ما يذكر حركات الجياد حين تهاجم الفرسان فانك لترى الجواد مسرع من تلقاء ذاته الى الموقع الملائم

لوصول الى قبيلة حسنى

براكبه فكأنه يدرك ما يجب عليه لتوفير العناء و مشقة على الفارس

ثم ر بين هذا العدد العديد من الفرسان من يمسك بيده لجاماً و رسناً بل كان كل منهم يلعب فرسه ويديرها بشدرة بعمامها بسيفه او بندقيته او رمحه لان كل من الفوارس يحمل هذه الاسلحة وعلى صدره كيبة كبيرة من الخرطوش السيف على جنبه والبندقية في كتفه والرمح بيده الشمال ممدوداً عرضاً على السرج ومنهم من يضع البندقية بين ذفي الفرس ساندا بها الى رسغه الفرس يركض فرسه لا يتحرك ، ومنهم من يضع الرمح على السرج عرضاً متوازناً ولا يقع رغم كثرة الالعاب بسرعة الحركات و اختلافها كثير منهم يدورون تحت بطن الفرس ثم يعودون الى السرج بينما الفرس تسير بسرعة البرق ، ومنهم من يطرح السيف على الارض والفرس تذهب الارض نهباً ثم يأخذه بقبضته ، ومثل هذه الالعاب كثيرة مدهشة اجروها امامنا كدت انسا نهم بالحقيقة من امهر الفرسان

وما كدنا نلج خيامه حتى نهض رجال القبيلة و قفين مرحبين بنا واقتادونا الى «بيت الاستقبال» وهو عبارة عن خيمة كبيرة من شعر الماعز الاسود قائمة على اربعة اعمدة ومفروشة بالسجاد العجمي الفاخر . ودعانا الشيخ محمد الى الجلوس فجلسنا معاً على مقعد

يعلو عن الارض نحواً من نصف ذراع والمقعد عندهم مؤلف من عدد من السجاد توضع السجادة فوق الاخرى الى ان يحصل الارتفاع الذي ذكرنا . ولا يستعملون المقاعد الخشبية لانهم يرون بحملها جزيل العناء حين يرومون التنقل

قسم من مضارب قبيلة الحسني

وما كدنا نجلس حتى رن في آذاننا صدى طرق موقع توقيع الانغام الموسيقية . فسألنا ما هذا ؟ فقيل لنا : طرق حرارن البن واذ شئتم تفضلوا وانظروا . خرجنا من الخيمة وقصدنا الى بيت الطبيخ كما يسميه اولئك العربان وكان على مسافة بضعة امتار وشاهدنا خمسة عشر رجلا يدقون البن في خمسة عشر جرنا . وكانت الاجران ومدقاتها من الخشب الجيد ووجدنا في كل جرن كمية زهيدة من البن ويوزعون البن على الاجران العديدة للسرعة في العمل وقد اعتادوا ان يحضروا البن عندما يرومون شرب القهوة تركنا بيت الطبيخ ودخلنا خيمة مجاورة فاذا هنالك عشر بدويات يدققن ويرقصن حول الاجران رقصاً موقعاً على الدق

ثم دعينا لتناول الطعام فادخلونا خيمة تعرف عندهم ببيت الاكل وهي قائمة على اربعة اعمدة وقد فرشت ارضها بالسجاد فجلسنا بشكل الحلقة وقدم لنا العبيد الطعام على الصورة الآتية :

١ صينية من النحاس مملوءة من لحم الغنم وقد جعلوه قطعاً كبيرة . ووضعوا فوق اللحم اربعة رؤوس غنم كاملة وغير مقطعة . وكان يحمل الصينية اربعة عبيد ومعهم عبد خامس حامل طاولة صغيرة من الشعر المجدول وضعها تحت الصينية التي اصبحت على علو عشرة سنتيمترات عن الارض في وسط الخيمة

٢ ثلاث طاولات صغيرة وضعت على مقربة من الصينية الكبيرة ليتمكن الجميع

من تناول الطعام بدون انزعاج

٣ ثلاث صينيات صغيرة مملوءة سمناً سخناً وضعت على الطاولات المذكورة آنفاً

٤ طاولة كبيرة وضعت في الوسط وعليها صحن كبير جداً مملوء ارزاً اعدوه على شكل هرمي

٥ قدور عديدة مملوءة لبناً يشبه الجبن وخبز محمص على حرارة الشمس . اما الحضور فكانوا اربعة عشر : شيخ القبيلة وثلاثة من ابناء عمه وثمانية من اركان قبيلته وانا ورفيقي السائح

اشار الينا الشيخ ان نتناول الاكل في مقدمة الجميع فاجبته شاكراً قائلا تفضل اولا يا مولاي

فاخذ قطعة من اللحم وغمسها بالسمن ولاسها . ثم تناول بيده كتلة من الارز وطرحها في اللبن ثم انتشلها بيمناه حاملا بيسراه طاسة اللبن وقد وضعها تحت ذقنه ثم اكل كتلة الارز بلباقة غريبة بنوع انه لم يسقط منها حبة على عباءته

توقفت ورفيقي عن الاكل ففطن الشيخ انه لا يسعنا ان نعمل عمله . فامر اذ ذاك احد العبيد ان تأتينا بطبقين نظيفين وشوكتين وملعقتين وسكينتين ، فقلت له وهل عندكم يا مولاي من هذه الادوات ؟ قال :

نعم ، على اننا لا نستخدمها ، وقد خصصناها بالضيوف الذين لم يتعودوا تناول الطعام على شاكلتنا

وسالت الشيخ قائلا :

ما رأيت احداً مد يده الى شيء من هذه الرؤوس الاربعة الموضوعة فوق اللحم فما معنى وجودها والحالة هذه ؟ قال :

هي عادة القبائل في كل البادية ويقصد منها احترام الضيف واكرامه ، اننا نقدم اربعة رؤوس اكراماً لضيف نحسبه من ذوي الطبقة العليا وثلاثة لذوي الطبقة الثانية واثنين لذوي الطبقة الثالثة ونقدم رأساً واحداً للضيوف العاديين الذين يؤمونا لحاجة كتجار السمن والصوف كما اننا نقدمه لامراء القبائل المجاورة التي تربطنا بها علائق الصداقة والاخاء

ولما انتهينا من الاكل نهض الشيخ وقال احمد الله تفضلوا فنهضنا معه جميعاً ومررنا

بيت الاستقبال في قبيلة الحسنى

الى بيت الاستقبال فرأينا عبداً جالساً في وسط البيت وامامه نار شكلها لفت نظري لانها تختلف عن المعتاد . فسألت الشيخ :

ما هذه النار ومن اي شيء تتولد ؟

قال : من بعر الجمال لان القهوة لا تكون طيبة على نار قوية فبعر الجمال ناره خفيفة وامام النار ثلاثة ابارين نحاسية فيها جميعها ماء تغلي فبعد ما جلسنا وضع العبد البن في اول ابريق ثم وضعه فوق النار خمس دقائق في اثنائها فرغ المياه من الابريقين الاخرين في ابريق كبير اتى به احد العبيد ووضعه قرب النار، ثم بعد خمس دقائق فرغ الابريق الذي فيه البن في الابريق الثاني ووضعه فوق النار ايضاً نحو خمس دقائق ثم فرغه في الثالث ووضعه فوق النار نحو خمس دقائق ثم وقف وحمله بيده اليمين وحمل بيده الشمال الفناجين فوق بعضها بعضاً وكان يضع في كل فنجان مقدار جرعة واحدة من القهوة فيقدمه لواحد من الجالسين حتى اخذوا كلهم ثم استأنف اغلاء القهوة في ابريق آخر وسقانا مرة ثانية ثم مرة ثالثة هذه طريقة عمل القهوة عند العرب او « القهوة العربية » تؤخذ ثلاث جرعات ولكنها لذيذة ومسكرة في آن واحد

وازفت الساعة الرابعة مساء فسمعت اصوات اجراس القافلة فقلت للشيخ :

جاء رجالنا مروا لهم بمكان ينصبون فيه الخيام فامر قومه بالعمل فاطاعوا ، ثم قال: اتريدون ان تتفقدوا القبيلة ؟

قلنا نعم

فقال اركبوا جيادكم لان المسافة بعيدة ويشق عليكم ان تسيروا على الاقدام ، فسرنا والشيخ معنا والى جانبه احد العبيد يحرسه بسيفه . دخلنا المضارب فاذا ببعضها كبير وبعضها صغير ، منها ما فرش بالسجاد ومنها بالشعر ، من العربان عراة ومنهم من ارتدى الملابس الفاخرة الثمينة ، فاحببنا ان نطلع على احوال القبيلة مفصلا فكانت بيني وبين الشيخ المحاورة الاتية :

قلت : ما هو نظامكم فيما يتعلق بافراد العائلة (عائلة امير القبيلة) ؟

قال : ماذا تعني بذلك ؟

قلت : اعني الانظمة التي تسيرون بموجبها حفظاً لكرامة العائلة

قال : يتزوج افراد العائلة من بناتها زواجاً صحيحاً شرعياً

قلت : وهل تعتبرون السبي زواجاً صحيحاً شرعياً ؟

قال : لا يكون السبي زواجاً صحيحاً شرعياً ما لم يكن مقيداً بما يأتي :

ينعقد مجلس عائلي مؤلف من افراد معينين فاذا ثبت للمجلس هذا ان السيدة المسبية من اصل شريف جدير بامتزاجه بعائلة البدوي الذي سباها كان الزواج شرعياً صحيحاً والا فلا

قلت : اليحق لشيخ القبيلة او اميرها ان يتزوج بنساء عديدات ؟

قال : نعم

قلت : واولاد اية امراة يكونون اولى بان يرثوا المشيخة

قال : كانت الشريعة تخص المشيخة باكبر العائلة سناً ولكن الشريعة هذه قد تلاشت واضمحلت فاصبح الشيخ من احرز المشيخة بسيفه وسطوته

قلت : والحالة هذه يسع رجلا غريباً عن العائلة ان يحرز المشيخة بسيفه وبأسه

قال : ذلك مستطاع ولكنه صعب المنال . اجل ان المنازعة على المشيخة يثور ثائرها بين افراد العائلة ولكنهم يتكاتفون وينضمون لمقاومة اي غريب ودخيل فيتعذر على هذا الاخير والحالة هذه ان يتغلب على مجموع العائلة . واعلم ان البدوي لا يخضع الا

لابن النسب وسليل الدم الشريف

والى الان لم يتمكن دخيل من التسلط على القبيلة

قلت : لو قتل شيخ القبيلة ولم يكن له ولد ذكر و كانت له زوجة وبنات فماذا يكون حظهن بعده ؟

قال : تعود اليهن ثروة الشيخ برمتها ولا يسع احداً غيرهن ان يستولي على درهم من تلك الثروة ، ويظل معاشهن معاش افراد العائلة

ولو اتفق ان قبيلة اخرى تغلبت على قبيلتهن واخضعتها لسلطانها بقوة السيف فمن واجب القبيلة الغالبة ان تحافظ على كيان افراد عائلة القبيلة المغلوبة مقدمة لهم سائر ما يحتاجون اليه من امور المعيشة ، وتكون عائلة القبيلة المغلوبة اسيرة للغالبة ولكنها اسيرة مكرمة لا ضغط عليها ولا حيف ، فهي سنة بين القبائل على الاطلاق لا يخرقها الا بعض الشذاذ

قلت : وماذا يكون معاش عائلة الشيخ القتيل ؟ هل من امتياز لافرادها ام انهم خاضعون للنظام العام ؟

قال : يسري عليهم نظام القرابة فلا امتياز لهم في المعاش او في شيء آخر ، وكثيراً ما يتفق انهم يكونون ذوي ثروة طائلة فلا ينحصر همهم بامر معاشهم انما يعنون بامر حفظ كرامتهم و منزلتهم في الهيئة الاجتماعية

قلت : وهل يمكن البدوي ان يميز بين سيدات العائلة وبقية سيدات القبيلة ؟

قال : نعم ، فان العماريات او حرم العائلة يرتدين الملابس التي تميزهن ، زد على هذا انهن يركبن الهوادج ، بين ان بقية النساء لا يركبن سوى الحلال (الجمال) ويحيط بنساء العائلة في سيرهن الحرس والحشم والخدم ، ولكل سيدة منهن اسم خاص ونسب خاص تعرف به بين القبائل

قلت : وكيف يعرف شيخ القبيلة وهو راكب بين فرسانه العديدين فهل من علامة فارقة تميزه ؟

قال : نعم ، فهو يسير دائماً في مقدمة الجميع وتكون ملابسه افخر من سائر الملابس ويتقلد سيفه الذي هو سيف اجداده . واعلم يا صاح ان لكل قبيلة سيفاً يتوارثه المشايخ قال هذا واستل سيف قبيلته وناولنيه فقرأت فيه تاريخاً يعود الى ستاية سنة وقد نقش

عليه اسم مؤسس القبيلة هكذا :

شيخ قبيلة الحسنى : بقوة ومعاونة نبي الله صلى الله عليه وسلم

سهيل سنة ٧١٢

وقد نقشت الكتابة هذه على نصل السيف باحرف ذهبية

ارجعت السيف وقلت : الم يسبر سيدي الشيخ فيما مضى ؟

قال : استغفر الله ، ما اقدمت قط على هذا العمل اللئيم ولا فعل ذلك احد ابناء عائلتنا

قلت : ولماذا ؟ اتعدون ذلك عيباً ؟ نحن نسمع ان العمل هذا عمل شجاعة

قال : لا انكر انه عمل شجاعة ، غير انه لا يخفى عليكم ان نساءنا يكرهن هذا العمل اذ انهن يعتبرنه دليلا على عدم اكتفائنا بهن فنجد في طلب غيرهن وهذا ما يعكر صفاء الحياة العائلية

قلت : واذا كان البدوي عازباً هل يعاب اذا سبا ؟

قال : كلا ، اذا سبا وتزوج لا لوم عليه ولا تثريب ولكن السبي كثيراً ما يولد الضغائن بين القبائل فيكون والحالة هذه وخيم المغبة ولذلك نكرهه ولا نقدم عليه الا مرغمين

ثم انتهينا الى مركز رجالنا فوجدناهم قد نصبوا الخيام واعدوها بكل ما يلزم فدعونا الشيخ الى شرب الشاي فقبل الدعوة شاكراً

وعاد الشيخ الينا بعد العشاء فصرفنا السهرة في سرادقنا ، وفي خلالها كلفني رفيقي السائح بالحديث الآتي :

يفتخر المرء في الغرب بثروته ثم بعلومه ومعارفه فهل هذا دأب البدوي ؟

اجاب الامير قائلا :

لا يفتخر البدوي بثروته او بعلمه والعلوم عندنا قاصرة جداً انما افتخاره منحصر بالفروسية والشجاعة فهو يعتقد انه متى كان فارساً شجاعاً تمكن من اكتساب الثروة بسيفه وبأسه ، وليست الثروة في نظر البدوي مدعاة للافتخار ولذلك رأيته وهو بين اقرانه يحدثك عن جواده وسيفه ورمحه وعن الغزوات التي كان في جملة افرادها وما شاكل هذه الامور

قلت : وفي ي سن يتزوج عدة رجالكم؟

قال : يتزوج البدوي عادة وقد اصبح بين الخامسة عشرة والعشرين سنًا وهو مضطر الى الزواج في مطلع شبابه اذ لا سبيل له الى ارضاء الطبيعة بالتجاءه الى الدعارة وابواب الدعارة مغلقة عندنا

بيت في قبيلة الحسنى

قلت : وهل حوادث الطلاق كثيرة بين القبائل كما هو شأنها في المدن والقرى العامرة ؟

قال : كلا ، فالطلاق عندنا نادر امره اذ لا يعاشر رجالنا سوى نسائهم فلا تفسد اخلاقهم والحالة هذه من مغازلة نساء غريبات عنهم

قلت : وكيف احوالكم وعلاقاتكم مع الدولة العثمانية ؟

قال : نحن ورجالها على خلاف دائم ولا سبيل لنا الى التقرب من ولاة امورها فهم يعتقدون بنا الهمجية والخيانة والغدر ونحن نحسب الاتراك الداعداء العرب يضمرون لهم الحقد والبغضاء

قلت : وهل يفرض عليكم مال لهذه الدولة ؟

قال : اننا ندفع لها ضريبة الاملاك الثابتة غير انها لا تكتفي بذلك فتبذل كل ما بوسعها لجمع الاعشار وكثيراً ما لا تنجح

قلت : أتؤثرون بقاءها سيدة البلاد العربية ام تفضلون تقلص ظلها عنكم وحلول غيرها محلها ؟

قال : اننا لا نحب الدولة العثمانية غير اننا لا نفضل سواها عليها لاننا نجهل ما سيكون من امر دولة او امة جديدة تستولي على املاكنا . ولا اخفي عنك اننا نوعًا ما

الجمال تشرب قبل الرحيل

مستقلون بادارتنا و حكامنا فلا علاقة بنا لها من هذه الوجوه ولا خطر على كياننا القومي ما زلنا بعيدين عن الحضر ولا نضطر الى ارتياد المدينة الا لبيع غلالنا وشراء لوازم معيشتنا

قلت : وبأي الطرائق تستجلبون اسلحتكم ؟

قال : بواسطة التجار الذين يأتوننا بها الى وسط القبيلة ويتقاضوننا عليها ثمناً فاحشاً فالبندقية التي تباع في الشام بست ليرات مثلا نشتريها باثنتي عشرة وهكذا قل عن غيرها

ثم ما طال بنا الامر حتى انصرف الامير عائداً الى مضربه . وما كدت اغمض جفني حتى جاءني احد رجالنا يقول لي :

اني اسمع وقع اقدام خيل ، فبعثت به يستطلع الخبر فعاد وقال :

شاهدت ضابطاً تركياً يصحبه عشرة من جنوده وقد ذكر لي اسمك وهو يرغب في مقابلتك ، فاوعزت اليه ان يدعوه الى الخيمة ، ففعل

حيانا الضابط ثم قال :

اننا آتون اليكم من قبل مدير القريتين وذلك محافظة على ارواحكم واموالكم من غدر البدو فانهم خونة اسافل لا زمام لهم ولا وجدان

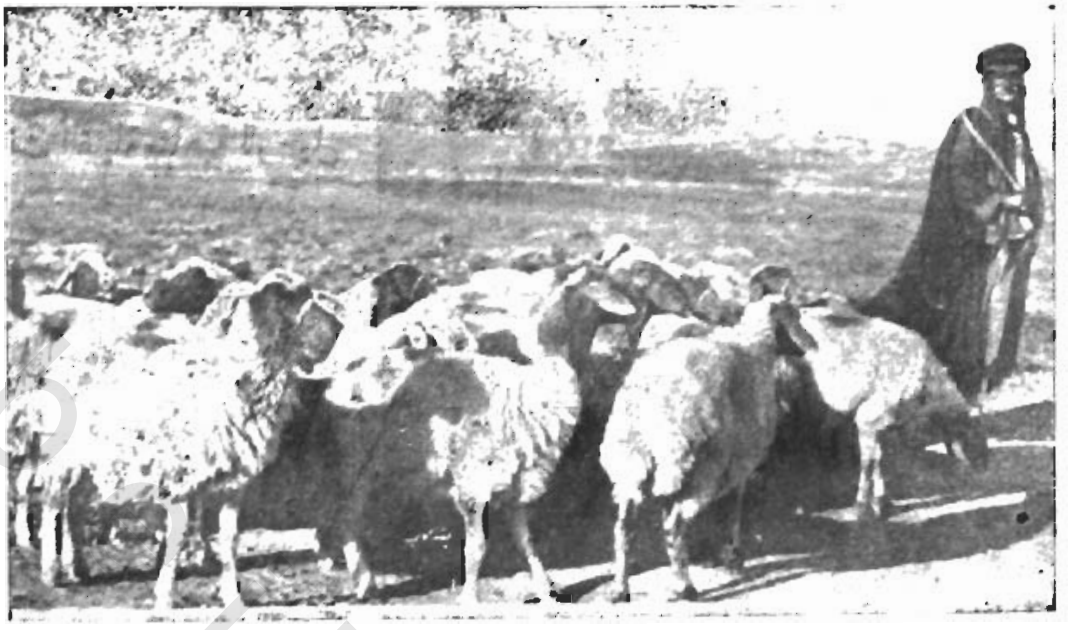

الغنم تشرب قبل الرحيل

اجبته : ولكننا ممتنون لهم كثيراً فقد اكرموا وفادتنا واحسنوا ضيافتنا وعلى كل حال نحن شاكرون لعطف المدير علينا ولاهتمامه بنا وسنبذل الجهد لابداء امتناننا يوم نعود الى القريتين . اهلاً بكم ومرحباً بقدومكم ورقد الضابط وجماعته ليلتهم عندنا .

٣٠ اذار

كانت القبيلة قد عزمت على الانتقال في ذلك اليوم فعزمنا على الانتقال معها اقتباساً لفوائد جديدة لها علاقة بعادات العرب واخلاقهم فمر بنا الشيخ حوالى الساعة الخامسة صباحاً وقال . هيا بنا الى الرحيل

سرنا معاً على الاقدام مسافة قصيرة فوجدنا بدوياً في مطلع الشباب واقفاً على رابية صغيرة الى جانب بركة طافحة بماء الامطار (والى جانب بركة كهذه ينصب العربان خيامهم ارواء لابلهم وبقية مواشيهم)

فنادى الشيخ الغلام قائلاً : اسق ياعلي

فاخذ علي ينادي الابل والغنم قائلا : راحله ياراحله : وظل يردد كلمته هذه نحو من عشر دقائق وشرعت الابل تقترب والغنم بعدها من البركة وتشرب وتناولت المواشي شرابها بنظام وترتيب عظيمين وابتعدت عن الماء

قبيلة الحسنى راحلة

ونحو الساعة التاسعة كانت القبيلة متأهبة للرحيل فسارت على النمط الآتي :

سارت الجمال اولاً تحمل الخيام او البيوت وسائر الذخيرة والادوات وسار قدامها خمسون فارساً بقيادة شيخ عربي في عقده الخامس

سارت بعدها المواشي على اختلاف انواعها ومعها الرعاة وعائلاتهم وكان قدامها ايضاً خمسون فارساً بقيادة شيخ عربي في عقده الرابع

وسار موكب العائلة منظماً هكذا :

الحرم في خمسة عشر هودجاً وحولهن الحرس الخاص بهن ويتألف من خمسين فارساً من نخبة الفرسان . ثم الشيخ امير القبيلة والى جانبه ابنه الصغير وكان وحيداً وابناء عم الشيخ وكانوا ثلاثة وعبدان مسلحان بحرسان الشيخ ومن حوله

وفي مؤخرة الجميع سار الفرسان فرقاً فرقاً وقد امتطوا جيادهم وتقلدوا اسلحتهم وكان عددهم على ما افادنا الشيخ ثلثمائة فارس

مشينا والقبيلة حتى الساعة الثانية بعد الظهر وكنا انتهينا الى بركة ماء في محلة تعرف بالوادي واقعة الى الجهة الغربية من قرية (مهين) وهي القرية التي كنا فيها في الخامس والعشرين من اذار

وفي تلك المحلة نصبنا سرادقنا ونصب العربان خيامهم

وكان ذاك الوادي خصباً كثير المرعى فسرح العربان ماشيتهم في سهوله ثم مثل اركان القبيلة امام الامير يسألونه ما يجب ان يعملوه في الغد وكانت الشمس قد قاربت المغيب فاجابهم الامير قائلا : لقد عزم ضيوفنا الكرام على مغادرتنا غداً بناء عليه سنمكث يومنا هنا لاننا مضطرون الى ارسال قسم من فرساننا يرشدون هؤلاء الضيوف

حرس العماريات

الى الطريق المؤدي بهم الى السلطاني ويحرسونهم اثناء مسيرهم

وفي تلك الليلة دعونا الشيخ واركان القبيلة الاربعة لتناول العشاء على مائدتنا معتذرين لهم عن عدم تمكننا من دعوة غيرهم نظراً لضيق المقام

وقدمنا لهم الاطعمة على الطريقة الاوربية فسروا بذلك كثيراً وطلب الينا الشيخ ان نطلعه على الطريق التي ازمعنا سلوكها فقلنا له اننا عائدون الى بيروت عن طريق حلب فحما فحمص فبعلبك

قال : اؤمل منكم اذن ان تزوروني في (ديرة) حمص اثناء رجوعكم الى بيروت لاننا نكون هنالك في تلك الاونة وارشدني الشيخ الى طريقة الوصول اليه في (ديرة) حمص بدون عناء ومشقة

وسألني الشيخ قائلا . وماذا دعا رفيقك السائح الى تحمل مشاق هذه الرحلة ، فترجمت للسائح كلام الشيخ فاجاب ، دفعني الى ذلك درس حياة البدو واحوالهم وعاداتهم واخلاقهم وامالهم الخ

وسأل الشيخ ما اذا كانت الرحلة هذه على نفقة حكومة السائح ام على نفقته الخاصة فاجاب السائح انها على نفقته الخاصة على انه سيقص على حكومة القيصر كل ما يهمها من

مور العربان مبيناً لرجالها ما لقي بينكم من ضروب الحفاوة والاكرام وحسن الضيافة وعندها اعتذر الشيخ قائلا :

ما زلنا بعيدين عن تأدية كل ما يجب علينا نحوكم ولكن لنا عذرنا فنحن في البرية على انه اذا زرتمونا في ديرة حمص نتمكن من سدل الحجاب على قصورنا في هذه الصحراء

ودعنا الشيخ ورجاله عائدين الى خيامهم للاستراحة والنوم وعندها قال لي رفيقي :

سها عن بالنا ان نسأل عن كيفية الارث عندهم وعما اذا كانوا يتمشون على الشريعة الاسلامية المعمول بها في الحضر ام انهم مصطلحون على انظمة وقواعد خاصة بهم فقلت له :

نسأله غداً انشاء الله

لوكندة ميناهوس

بيروت

احسن مركز في المدينة لها مناظر جميلة يوجد فيها جميع الوسائل للراحة مع طعام مفتخر . (الاسعار متهاودة)

شارع البوسطة نمرة التلفون ٥٨ — ٦١

٣١ اذار

حوالي الساعة السابعة صباحاً جاءنا الشيخ يزورنا قبل مغادرتنا القبيلة وكان قد استصحبني في الليلة الغابرة لتفقد شؤون الخيل ، وهي عادته في كل ليلة قبل ان يذهب للرقاد . فسألني ما اذا كانت جيادهم قد اعجبتني ، فاجبته ان اكثريتها من اصل كريم « وكنت قد شاهدت بينها جواداً حديدي اللون ازرق فحسبته من اصل مختلف عن البقية فنوهت للشيخ بذلك » فاجابني فوراً :

لو كنت تعلم كم ابلى هذا الجواد في الغزوات العديدة لغيرت اعتقادك . ثم نادى

احد عبيده وكان اسمه مرجان قائلا :

آتنا يا مرجان بمسعود « وكان اسم ذلك الجواد مسعوداً » . فانجز العبد امر مولاه ، ولم يكن من الشيخ الا انه صاح بي قائلا :

هذا الحصان هدية مني اليك تفضل واركبه واثناء مرورك بحمص ترجعه الي ان لم يعجبك فاقدم لك غيره : فقبلت هدية الشيخ شاكراً لالطافه وكرم اخلاقه ، وعدت فسألته عن العادة المتبعة عندهم فيما يختص بالارث فاجابني :

انهم تابعون للشريعة الاسلامية بحذافيرها ، غير ان الابنة المسيبة تفقد حق الوراثة ثم ودعنا قائلا :

لقد اوعزت الى عشرين فارساً برافقتكم الى طريق السلطاني وهم مستعدون لخدمتكم حيثما تشاؤون ، قلت :

شكراً لك فليس من داع لازعاجكم اذ ان برفقتنا ضابطاً واثني عشر جندياً واظنهم يعرفون الطريق ، فقال :

ليس من يعرف الطرقات هنا سوى العربان الذين درسوها وداسوها مراراً . ولو اكد لكم الضابط وجنوده انهم يعرفونها لا تصدقوهم ويجوز انهم يرشدونكم الى طريق السلطاني ولكنهم لا ينجزون العمل قبل مرور يومين ان لم يكن اكثر في حين ان رجالنا يرشدونكم الى ذلك بعد ثلاث ساعات

ودعنا الشيخ شاكرين لاهتمامه بنا ومرنا والفرسان والضابط وجنوده . وما مرت ساعات ثلاث حتى انتهينا الى طريق السلطاني فاصبحنا بأمن من كل خطر . وعندها اشار الي رفيقي ان اقدم للفرسان عشرين ذهباً عثمانياً فطلبت كبيرهم وقدمت له المبلغ المذكور فرفض قبوله قائلا . نحن نخدم ضيوف اميرنا ولسنا بمستأجرين . قلت انه لمبلغ زهيد مقدم لكم على سبيل الهدية وليس على سبيل الاجرة . فاقبله من السائح اذا شئت فرفض قائلا . كنت احسبكم تعرفون عاداتنا . لا يقبل البدوي الشريف مكافأة على مروءته ، ونخره بمروءته . ثم اذا وقف اميرنا على خساستنا عنفنا وبصق في وجهنا بناء عليه لا تلحوا علينا بقبول درهم واحد . عندئذ عرضت عليه صندوقاً من لفائف التبغ للبناني مؤونة لطريقهم فقبله شاكراً وعاد الفرسان ادراجهم

ورافقنا الضابط التركي ورجاله حتى القريتين . وكنا هنالك عند المساء . فنصبنا

خيامنا في المحل الذي قمنا فيه قبل رحلتنا الى ارض القبيلة اي في حوش موسى سليمان ابو نعوم وهناك بتنا ليلتنا

١ نيسان سنة ١٩١٤

نهضنا باكراً وتأهبنا لزيارة مدير القريتين نشكره لاعتنائه براحتنا

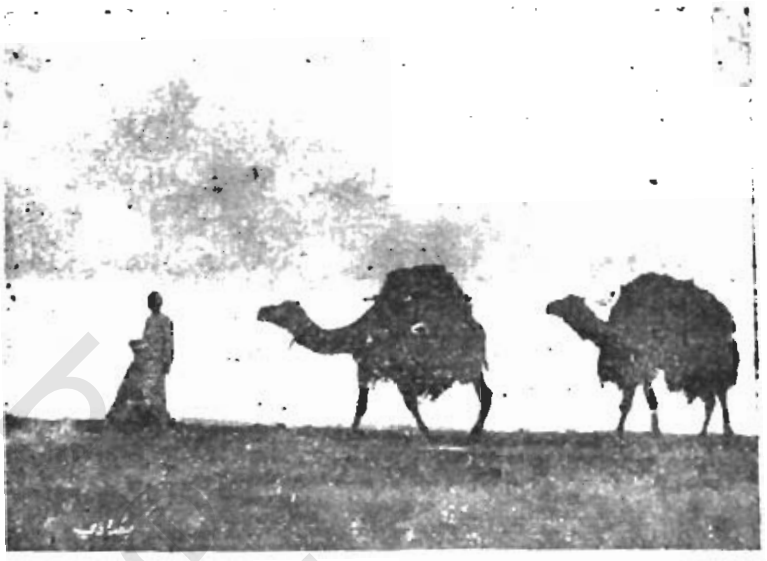

جمال العربان تنقل الصوف

وحراستنا فكنا على باب داره حوالى الساعة السابعة صباحاً . استأذنا فدخلنا فاذا بنا امام شاب تركي جميل الطلعة لا يتجاوز الثلاثين من عمره . فاجلسنا ثم جلس وقال :

كنت مضطرب البال من نحوكم فالبدوي خائن غدار لا يؤمن شره ولذلك بعثت بمن يحرسونكم ويرافقونكم في رجوعكم .

فقال له رفيقي جئناك الان نشكر لعنايتك هذه وسوف اذكرك ما حييت ولن انس جميلك .

ثم قدموا لنا القهوة فشربناها شاكرين ونهضنا نودع المدير . فهمس رفيقي في اذني طالباً مني ان استأذن المدير فنقدم شيئاً من المال لاولئك الذين قاموا بحراستنا ومرافقتنا فابى قائلا : انهم جنود مكلفون بالسهر على الامن العام ولم يفعلوا سوى واجبهم ولا اجر على الواجب زد على هذا اننا لا نريد ان يتعودوا عادة كهذه

عدنا الى مضاربنا فوجدنا كل شيء معداً للرحيل فقمنا برجالنا قاصدين الى (قصر الحير) وكانت الساعة التاسعة صباحاً . فانتهينا الى ذلك المكان عند الساعة الثالثة مساء فتناولنا الطعام في ظل الاثار القائمة في تلك البقعة

وتعود آثار (قصر الحير) الى عهد زنوبيا ملكة تدمر التي تعرف بمدينة الورد . ومما يروى انه كان في ذلك المحل خزان كبير لاحراز المياه التي جرتها زنوبيا من عين

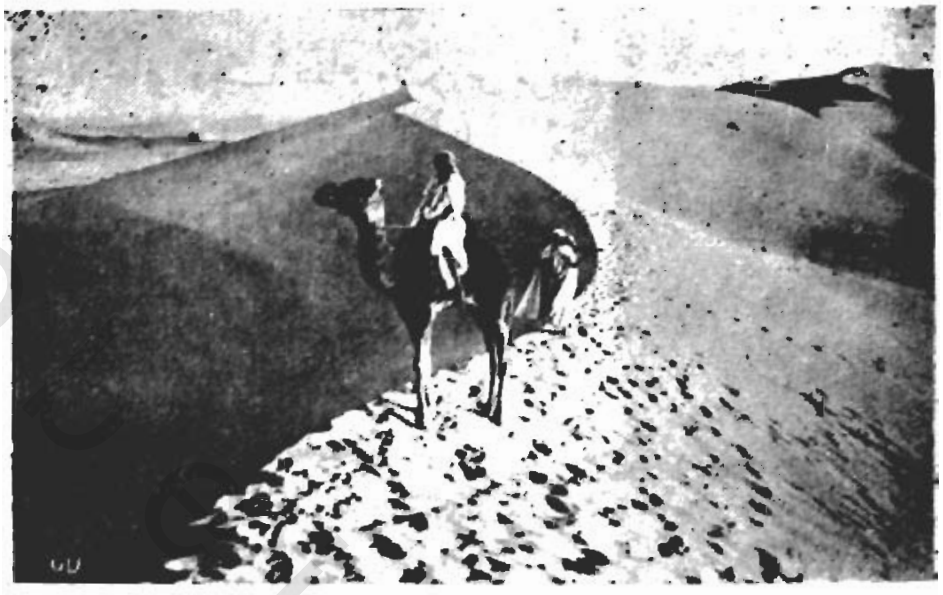

العربان حول قصر الخير

الفيجة الى تدمر . وما زالت بين تدمر وعين الفيجة آثار القناة الحجرية التي اصطنعتها تلك الملكة .

ثم سرنا برجالنا الى ان ادى بنا المسير الى مفازة فسيحة فنصبنا الخيام على هضبة وكانت الساعة السادسة مساء

وكان الطقس رديئاً والبرد قارساً وهبت في ذلك الليل عاصفة قوية فجاءت ضغثاً على ابالة ولم يغمض لنا جفن وخشينا ان تشتد العاصفة فتقتلع حبال الخيام

ومرت ساعتان على انتصاف الليل فأحس الحراس بوقع اقدام خيل في الجهة الغربية فاسرع ينقل الي الخبر فاوعزت اليه ان يذهب ورفقاءه لمجابهة ما قد يطرأ علينا وذهبت الى سرادق السائح وايقظته طالباً منه ان يكون على استعداد وحذر فنهض وتقلد بندقيته

ثم سرنا باجمعنا غرباً وكنا متأهبين لكل طارىء . وما اصبحنا على مسافة خمسين متراً من مضاربنا حتى شاهدنا مجرى مياه شتوية فمكثنا هنالك

ومر على ذلك نحو نصف ساعة فابصرنا على مقربة منا خيالا بشرياً ، فصحت قائلا : قف مكانك يا هذا والا اطلقنا عليك النار فقال :

لا تخافوا فما انا الا بصديق لكم قلت :

ومن يكون هذا الصديق ونحن لا نعلم ان لنا في هذه البقعة صديقاً ، انطق بالصدق والا قتلت

قال : لا تطلقوا النار ايها الناس فلست بوحدي ، انما نحن خمسون فارساً ، فاذا قتلتموني كان ذلك وبالاً عليكم

البدوي ضيف لليل

لا تخافوا وهيا نتفاهم ولكم من مروءة العرب اعظم ضامن لسلامتكم، قال هذا ونزل عن جواده ودنا منا وحيانا بهذه الكلمة:

«السلام عليكم!»

قلنا: وعليك الف سلام، وما خبرك؟ وما قصدك؟

فعاد وقال: السلام على الضيوف قلت:

والسلام على ضيوف اتوا الينا في مثل هذه الساعة

قال: رأينا الخيام منصوبة فقصدنا اليها على ان المسافة بعيدة فاضطررنا الى المسير ليلنا كله ولم نستطع الوصول اليكم قبل هذه الساعة ولا يخفى عليكم ان تقدير المسافات صعب في المفاوز والسهول

ثم اتينا به الى الخيام وقدمنا له القهوة وكانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل فسألناه ماذا تطلب منا فقال:

بلغنا ان معكم عرباناً من اصدقائنا فجئنا لنسلم عليهم قلت:

ومن اعلمكم بذلك؟ قال:

علمنا انكم كنتم بضيافة الشيخ محمد الملحم وانه رافقكم الى هنا وان بمعيته احد ابناء عمه.

قلت: نعم كنا في ضيافته وقد ابدى لنا من كرم الاخلاق ما لا يسعنا ان ننساه على انه لم يصحبنا الى هنا ولا ابن عمه ايضاً. وقد اخطأ من نقل اليكم خبر مجيئه الى هذه البقعة.

قال: اني اقرأ على جبينكم علائم النجار الكريم، فبحقكم قولوا لي اذا كان الشيخ محمد الملحم عندكم

قلت لو كان الشيخ محمد معنا لما انكرنا عليكم امره . وما زل هذا الشيخ صديقاً لكم ماذا يمنعكم من التصريح بما تطلبونه منه ، ارى في المسألة سراً

قال : بما ان الشيخ غير مقيم بينكم لا حاجة الى البحث بامره

قال هذا وسار الى مربط الخيل فابصر الجواد الذي قدمه لنا الشيخ محمد . وعندها عاد فقال : انني لاعجب من قولكم ان الشيخ محمد الملحم ليس معكم وقد شاهدت بام عيني جواده مربوطاً بين جيادكم

قلت لقد قدم لي الشيخ محمد هذا الجواد فاصبح ملكي الخاص . وقد اوشك الفجر ان ينبثق فيمكنك اذ ذاك ان تتفقد الخيام وتتحقق ما اذا كان الشيخ معنا ام لا

ثم دعوته ليجلس الى جانبنا ففعل ، وكانت الرياح قد سكنت . فسألته . وماذا دعاكم الى معاناة المشاق في هذه الليلة الباردة ؟ لا بد ان في المسألة سراً فهل لك ان تطلعنا على ذلك ؟

قال : سأطلعكم على السر عند الصباح بشرط ان لا يكون الشيخ عندكم

وعندها انتقلنا الى التحدث عن احوال القبائل العربية المجاورة لتدمر وكنت اترجم لرفيقي ما دار بيننا من الكلام . وما زلنا نتحدث الى الساعة الخامسة وقد طلع النهار

فافتقد رجالنا البدوي لى الخيام بتفقدها واحدة واحدة ثم عاد الينا وقال : انتم بالحقيقة اناس صادقون . لقد احسن الينا الشيخ محمد الملحم صنيعاً فجئنا نسلم عليه ونشكر لافضاله

ولربما زعجناكم فاعذرونا . وارجوكم اذا قابلتم الشيخ فيما بعد ان تقولوا له اننا قصدنا ان نبدي له عواطف امتناننا لفضله ومعروفه قلت :

وهل لك ان تقول لنا من انت وما اسمك ؟ قال :

لست اعطيك اسمي ولكن الشيخ يعرف اصدقائه واعدائه حسبكم ما نظرتم

وفي غضون ذلك قبل فارس من رفقاء ذلك البدوي وهمس في اذنه كلاماً لم نطلع عليه ثم عاد ادراجه . اما البدوي فظل عندنا الى ساعة رحيلنا ، وعندها ودعنا وانصرف

٢ نيسان

كنا في حيرة من امر ذاك البدوي ولم يسعنا ان نجزم ما اذا كان يقصد السلام على

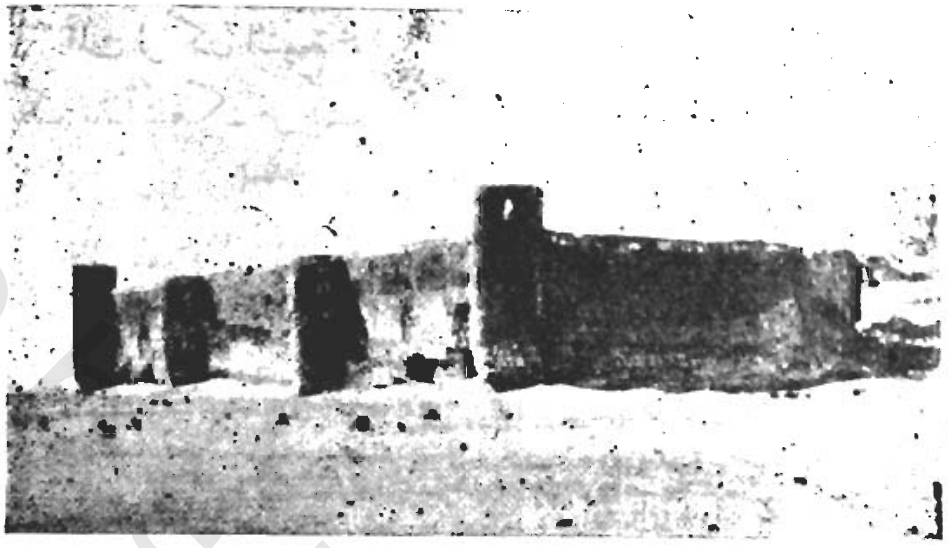

القلعة البيضاء

الشيخ محمد الملحم
ام اذينه
وتركنا الموضع
عند الساعة
السادسة صباحا
قاصدين الى
«القلعة البيضاء»
فانتهينا اليها عند
الساعة العاشرة
وجلسنا هنالك
نأخذ قسطاً من الراحة

ودعيت البيضاء نسبة الى جدرانها المجللة باللون الابيض . وهي نقطة عسكرية ومحطة للقوافل التي تتعاطى المبادلات التجارية مع القبائل العربية ومع دمشق وحمص وحماة وغيرها من مدائن الداخلية ، وفي القلعة البيضاء بئر ماء سهل لنا ان نسقي دوابنا وعند الساعة الحادية عشرة غادرنا القلعة البيضاء قاصدين الى تدمر فانتهينا اليها حوالي الساعة السادسة مساء . ونصبنا الخيام بين الاثار على كتف بنبوعها المعدني وكان التعب والسهر في الليل الغابر قد اخذا منا كل مأخذ فتناولنا الطعام . ورقدنا رقاداً عميقاً

٣ نيسان

نهضنا من نومنا حوالي الساعة السادسة صباحاً وقد استعدنا قوانا ونشاطنا ، ساعدنا على ذلك الهواء النقي والمناخ الجيد فذهبنا نتفقد الاثار . بنايات المدينة وقبورها ومعابدها وحصونها وقلعتها فاذهلنا ما شاهدنا هنالك من الاثار الدالة على عظمة الاقدمين وعلى المال الكثير الذي انفقوه في سبيل تلك البنايات المدهشة

— نظرة في تاريخ تدمر —

هي مدينة قديمة العهد كانت من اعظم المدائن الشرقية ومن ارفعها شأناً واكثرها عمراناً واوسعها تجارة . وموقعها في الصحراء بين الفرات والعاصي على مسافة تناهز المائة

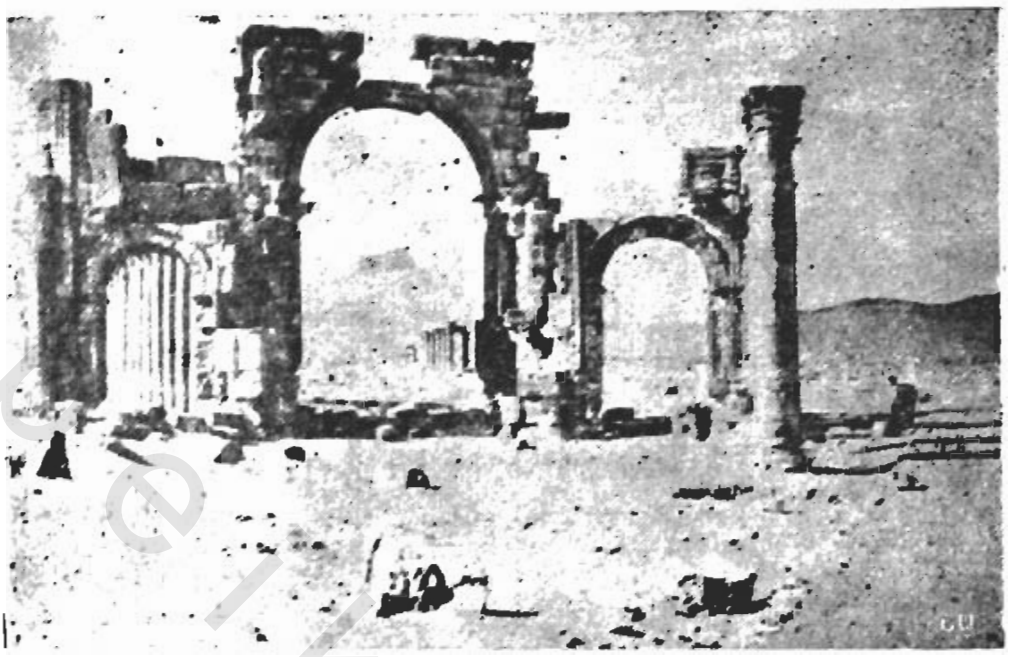

قوس النصر في تدمر

ميلا من حمص شرقاً والمائة والخمسين من دمشق الشام شمالا

قيل ان بانيها سليمان الحكيم . وقد بلغت ذروة مجدها في زمن الرومانيين وخاصة في عهد الملكة زينب .

لم يبق من عظمة تدمر في ايامنا هذه سوى اثار هيكل واطلال قصور واعمدة وقناطر وبنايات فخمة تفوق الوصف . وهي قبلة السياح وعلماء الاثار والتاريخ

مدخلها حصين جداً وهو واقع بين جبلين طبيعيين ، تزيدها مناعة القلع والمعاقل القائمة فيها ضف الى ذلك السور الذي يحيط بالمدينة ولم يبق منه الى الان سوى قطع ضخمة دلالة على ضخامة السور الاصلية

على الجبل العالي القائم في غربيها قلعة عظيمة تشرف على المدينة . وعلى ما فيها من جليل الاثار وجميل المناظر

اذا دنوت من احد قبورها وجدت النقش على حجارته يضاهي المرمر والرخام واندهلت من اشكال تلك الحجارة الوردية اللون وكانت الحجارة هذه باعثاً على تسمية المدينة بمدينة الورد .

لا نستطيع ان نشاهد من الهيكل الا قسمه الصغير لان المساكن قد قامت في قسمه الاكبر

جمال العربان تشرب من نبع تدمر

اما الماء الجاري من ينبوعها المعدني فهو حار وكثيراً ما يستجلب ليلا ليستعمل في اليوم التالي . وطعمه غير لذيذ انما الاستحمام فيه جزيل المنفعة

في عهد مجد تدمر وعظمة الملكة زينب كان الشعب يستقي من المياه التي جلبتها الملكة من عين الفيجه القريبة من دمشق ومن نبع اللبوة الواقع في بلاد بعلبك وقد جرت الملكة نفسها مياه هذين النبعين الى تدمر مصطنعة لمياه الفيجة والبوة اقنية حجرية ما زالت اثارها ظاهرة الى يومنا هذا

وموقع تدمر الطبيعي جميل جداً فقد قامت هذه المدينة في وسط اراض فسيحة واسعة ذات تربة جيدة وافرة الكلاء والخضرة وكانت تلك الاراضي تعطي فيما مضى الغلال العظيمة الكافية لاعاشة المملكة برمتها

وكانت تدمر في غابر الايام احدى محطات القوافل العظيمة ، ومركزاً تجارياً للحرير والكثير من غلال شرقي اسيا والهند التي كانت تستوردها بلاد الغرب

في سنة ٣٤ مسيحية هاجمها مرقص انطونيوس فرحل عنها سكانها بكنوزهم واموالهم المنقولة ولاذوا بحمى جيرانهم سكان الجزيرة مما يلي الفرات

وفي القرن الثالث بعد المسيح اصبحت تدمر جمهورية تحت حماية رومة وكانت اذ

ذاك وافرة الثروة

واكبر ملوك تدمر هو اذينة ابن السميدع وقد نادى بنفسه ملكا وقدم للدولة الرومانية خدمات جلى في حربها ضد سابور ملك للفرس . ثم نادى بذاته امبراطوراً فلم يلبث ان لقي حتفه على اثر تلك المناداة تاركا الملك لزوجته زينب التى اشتهرت بذكائها وحبها للحروب وبذوقها الجميل

وفي عهدها بلغت تدمر اعلى درجات المجد والرخاء فاتقنت فيها الزراعة وجلبت اليها الينابيع التي ذكرناها وحسنت ادارة الري ، وكان شعب تدمر لا يزال يتكلم اللغة الارامية كما تبين من الاثار الخطية التي وجدت فيها، اما الطبقة العالية من الشعب فكانت تجيد اللغتين اللاتينية واليونانية

وقد توفقت زينب الى توسيع مملكتها فبسطت سلطتها على سوريا وما بين النهرين وعلى شطر كبير من الاراضي المصرية

غير ان مطامعها كانت سبباً لسقوطها فزحف عليها الامبراطور الروماني اورليانوس قيصر ونكل بجيشها على مقربة من مدينة حمص وحاصر عاصمتها ففرت هاربة من امامه غير انها ما لبثت ان أسرت وسيقت الى رومه وهناك طوفوها في الشوارع يوم احتفال الامبراطور بانتصاره عليها وكان ذلك سنة ٢٧٢ مسيحية ... وعلى اثر ذلك اقامت الدولة الرومانية حاميتها في تدمر . غير انه لم يطل الامر حتى ثار الشعب على الرومانيين فامر الامبراطور اورليانوس قيصر بهدم تدمر وهكذا تلاشى مجد تلك المدينة وسقطت عظمتها . وفي عهد يوستينيانوس قيصر اعيد بناء الاسوار والهيكل وتحصنت المدينة فتمتعت بالرخاء وازدهرت وبقيت على هذه الحال حتى دخول الاسلام اليها

وفي سنة ٧٤٥ مسيحية قامت تدمر الاهوال الشديدة والتحقت بها الاضرار الجسيمة من جراء التنازع بين الامويين والعباسيين وقد ادى بهم تنازعهم الى حروب طاحنة طويلة العهد

وفي سنة ١٠٨٩ مسيحية هدم الزلزال اكثر بنايات تدمر ويظهر ان جماعة اليهود احتلوها في القرن الثاني عشر فاصبحت حينئذ اثراً بعد عين

المستوصف العام للدكتور انطون شلفون

شارع مار نقولا زقاق مار لويس — بيروت

اعظم واتقن مستوصف

معالجة بالراديو واشعة رنتجن والكهرباء عمليات جراحية — توليد — مختبر لاجل الابحاث الكيماوية والميكروبيولوجية

غرف من جميع الطبقات

بنك الرهونات المصرى

مركزه وكالة فخري بك — بيروت

شركة مساهمة افرنسية

مرخص بها من الحكومة اللبنانية بموجب مرسوم رقم ١١ ال .

سلفيات بالفايدة القانونية على رهن المجوهرات والحلى والحجارة الكريمة والفضية على اختلاف انواع ذلك من قيمة ليرة لبنانية سورية فصاعداً

اوتيل كونتيننتال بيروت

كاشفة على البر — حمامات خصوصية — قاعة الطعام متسعة — مطبخ حديث ماء جارية سخن وبارد تحتوي على جميع اسباب الراحة